البداية الجديدة

تأليف : دابليوجيه وزيرباي
ترجمة : ياسر محمود

عندما مات أبي، تساءل الناس ماذا سأفعل بمنزل الاسرة القديم فوق التل؟. كان السؤال مرسوما على وجوههم حتى في اثناء تأدية الطقوس الجنائزية. كانوا يصافحونني خارج الكنيسة ويحدثون الضوضاء المهذبة المعتادة، ثم يسألونني عن خططي المستقبلية. كان عرض الحزن التقليدي الذي قدموه ثقيل الوطأة على نفسي شأنه شأن المنطقة المحيطة بالكنيسة.

قدت سيارتي، وعدت وحيدا الى البيت. بعضهم حاول مرافقتي متوقعا ربما مشروبا كحوليا بالمجان، لكني تظاهرت بالتأثر والحزن، كما أنهم لم يصروا على ذلك.

كنت في حاجة لكي أكون وحيدا لما كان عليّ أن أفعله.

أمضيت ما بعد الظهيرة في تجميع تذكارات العائلة، ملابس أبي، أسلحته، أوسمته، انجيله ذي الغلاف الجلدي، مجموعة أعمال شيكسبير، كتاب فرويد، وكل شيء أسهم فيما كنت عليه.

كادت قمة كومة التذكارات تلامس السقف العتيق العالي في حجرة الجلوس. خطر لي أن أحتفظ بصورة فوتوغرافية التقطت على الشرفة في صائفة العام الماضي، لكنني ما لبثت أن قذفت بها الى الكومة. «يجب ألا يبقى أحد على قيد الحياة». كان على أن أكون قاسيا، متحجر القلب.

بحذر، قدت سيارتي الى سفح الجبل ثم عدت الى البيت، فحملت صفائح كبيرة من البارافين كنت قد احتفظت بها في المخزن ثم أفرغت عددا منها على الكومة حتى تشربتها تماما، وفاح المدخل برائحة البارافين. وأفرغت بقية الصفائح في انحاء معينة من البيت القديم الذي عشت فيه طفولتي.

وأخيرا نقعت كرة من الخيط السميك ومددتها من الكومة الى الشرفة الامامية.

نظرة أخيرة ألقيتها حول البيت للتأكد من أنني لم أغفل شيئا، ثم، ومن موقع آمن على الشرفة الامامية، أشعلت الخيط.

وبينما كان اللهب يسري عبر الخيط داخل البيت كنت أغادر التل مسرعا نحو السيارة. وفي الوقت الذي شغلت محرك السيارة كانت النيران تطال كل المنزل كمشعل عملاق طالما حلم به الاطفال. وبسرعة كبيرة انطلقت بالسيارة في اتجاه البلدة المجاورة. لم ألق نظرة واحدة الى الخلف حتى لا أجيب عن أية أسئلة. اخترت طريقا مألوفة تقود الى سلسلة من الطرق الهادئة التي طالما سافرت عبرها.

الريف في ذلك اليوم بدا نضرا، والرحلة كانت مبهجة ومنعشة بشكل غريب. وقد شعرت.. وكأنني أنطلق على تلك الطريق لأول مرة في حياتي، وفي انتظاري فرص لا نهائية.

لكن كان علي أن أدرك أن الهروب لا يمكن أن يكون بتلك البساطة.

بعد يومين عثر عليّ البوليس. قرع متواصل على باب حجرتي في فندق مغمور في الخارج رجلان بدينان كئيبان يرتديان معطفي مطر. تحققا من اسمي وكأنهما جاءا يطلبان استردادي.

خطر لي في البداية أن أنكر هويتي، لكنني بدلا من ذلك دعوتهما الى حجرتي الصغيرة. احتل أحدهما الكرسى الوحيد في الحجرة، وجلس الآخر على السرير، بينما اتكأت أنا قبالة حوض الغسل وكنت أراقبهما بحذر.

للمرة الاولى شعرت بإحساس حقيقي تجاه ما كنت سأواجهه. «لقد جاءا كمن يحمل اخبار سيئة» قال ذلك الرجل الجالس على السرير، وأضاف «أن النيران دمرت منزل أسرتي تدميرا كاملا» وأخذ الرجلان يرقبان ردّ فعلي. لا أعرف ما الذي كان يتوقّعانه، لكنه وبكل تأكيد لم يكن رضائي البهيج.

سألت اذا كانت محتويات المنزل قد تحوّلت الى رماد.

قال الرجل الجالس على السرير: «انه عمليا لم يبق شيء باستثناء أحجار الأساس» أومأت مستحسنا، فحملق فيّ الرجلان كما لو كنت مختلا عقليا.

فهمت موقفهما وتعاطفت معه. قلت: ان رجال البوليس ينذرون حياتهم من أجل الدفاع عن الممتلكات، وأنا هنا أعتبر فقدان ممتلكاتي مسألة غير ذات أهمية.

تضايقا واغتاظا من هذا القول. وقال الرجل الجالس على السرير: «انهما لا زالا لم يعرفا القضية».

وقطب حاجبيه وحدجني بنظرة فاحصة. حاولت أن أكذب لأبعد الشبهة عني، لكنني ما لبثت أن قررت أن ذلك لم يكن ملائما لحياتي الجديدة، فقلت له ببساطة تامة عن كل ما حدث.

فجأة تغير موقف الرجلان تجاهي وثارت كل أنواع شكوك المهنة لديهما بشكل واضح.

ما الذي جعلني أفعل ما فعلت؟ أراد الرجل الجالس على السرير أن يجد جوابا لذلك. أخرج دفترا سميكا، وخربش بقلمه للايحاء بأنه يكتب شيئا. حاولت أن أوضح أن كل ما أردته هو بداية جديدة... أن أكون مسؤولا عن نفسي، والآن صرت وحيدا. لكن ذلك لم يزدهما الا شكاً لقد أرادا أن يعرفا موقفي تجاه السلطة، وما اذا كنت عضوا في أي تنظيم.

فكرة أنني كنت مهتما فقط بحياتي الخاصة.. بدت بعيدة عن ادراكهما.

سألا.. كيف مات أبي؟ وكأنني أشعلت النار في المنزل لأخفي بعض الأدلة. أوضحت أن موته كان نتيجة جراح مزمنة وكررت تشخيص مرضه الأخير.

فوجئت بأنني أتمتع بذاكرة رائقة تحتفظ بكل التفاصيل المؤلمة.. كم كنت أتمنى أن أفقد ذاكرتي وتذهب مثلما ذهب المنزل. أستطيع أن أقول إن رجلي البوليس لم يقتنعا بما ذكرت...

افترقنا بتهديدات مقنعة تأكيدا لأهميتهما الذاتية، وعلمت فيما بعد أنهما أجريا تحقيقات واسعة حول قضية موت أبي. لكن لم يكن باستطاعتهما أو باستطاعة أي شخص آخر أن يقوم بعمل شيء.

كان البيت ومحتوياته ملكي قانونياً وكنت حراً بأن أفعل به ما أشاء، أو هكذا أكدت لنفسي..

تركاني ليلة استمتع بأوهامي ثم قبضا علي. زعما أن ناري هدّدت بخطورة الممتلكات المجاورة. لقد كنت تهديداً لجيراني. وكانت هناك استجوابات أكثر، ثم كان علي أن أدافع عن نفسي في المحكمة: «ان الناس يقولون دائما انهم يرغبون أن يبدأوا من جديد».

ومع ذلك يبدو أنني كنت أتكلم مع البوليس والقضاة بلغة أجنبية. لقد قرّروا عرضي على طبيب الأمراض العقلية. حرق كتاب فرويد لم يُفدني أبدا.. وسرعان ما سأواجه الانجيل مرة ثانية أو رجل دين، أو اخصائيا اجتماعيا من نوع معين.. ثم شيكسبير.. الثقافة وتاريخ أناس آخرين سأكون مسؤولا عنه.

الى الوراء سأنزلق، بحيث لا أكون بأي حال قادراً حتى على الهروب من حزني.

أنا أشعر بالطريق التي يجب على الحصان الوحشي أن يمر بها عندما يقع في المصيدة وتجري له عملية غسل دماغ ليصير حصان سباق.

وفي بعض الانحاء توجد التلال والمروج لكنها ليست لنا...

هل هزمت فعلا؟..